الفصل التاسع

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

إلى النصر بإذن الله

يقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(١).

أخرج أبو حاتم ، وابن مردَوَيْه ، عن جابر رضى الله عنه قال :

نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى المسجد ، فكثر الناس فى المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفى ردائه على عاتقه ، فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟

قال : نعم ، فقال الأنصارى : بيع ربيح ، لا نقيل ولا نستقيل .

وقد فرح المسلمون بهذه الآية حينما نزلت فرحاً كثيراً ، وذلك أنها بينت لهم فى صورة من اليقين أن الجهاد جزاؤه الجنة ، وهو جزاؤه الجنة سواء أكانت نتيجته النصر أم كانت نتيجته الاستشهاد .

– إن الجهاد على أى وضع كانت نتيجته، ثمنه الجنة . ورسول الله صلى

(١) سورة التوبة – آية : ١١١ .

الله عليه وسلم يقول :

« الجنة تحت ظلال السيوف » .

ولقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم ، وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك بالجنة ، لقد صور الله ذلك بالبيع والشراء .

والمعقود عليه هو الجهاد ، والثمن هو الجنة ، والبائع هو المجاهد ، والمشترى هو الله سبحانه ، ومكان البيع هو ميدان المعركة ، وتسجيل العقد فى عدة جهات موثوق بها هى الكتب السماوية .

والربح مؤكد على أية حال كانت نتيجة الجهاد ، لأنه سبحانه لم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ونصر دينه[١] .

أما المؤمنون الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فقد ذكر الله صفاتهم وعدها واحدة واحدة : فهم التائبون .

وأول ما ذكر الله من الصفات الصفة التى لا يتأتى للمؤمن أن يستقيم فى صلته بالله إلا بها وهى صفة التوبة فهم التائبون ، والتوبة صفة يحبها الله سبحانه وتعالى : يقول سبحانه :

« إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » .

والله يفرح بها .. يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن » .

وهم العابدون : إنهم عابدون بجهادهم ، وهم عابدون بعملهم ، وهم عابدون بأقوالهم ، لقد صيروا حياتهم فى كفاحها وفى نضالها وفى قولها وصمتها

(١) انظر تفسير الكشاف فى ذلك .

وفى حركتها وسكونها ، إلى عبادة ، فتحققوا بقوله تعالى :

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ » .

وهم الحامدون لله فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر ، فى الرخاء والشدة : لأنهم يعلمون أن حكمة الله فوق كل حكمة ، وتصريفه أحكم تصريف .

وهم السائحون ، أى يطرقون كل الوسائل فى سبيل الرقى الذاتى : بالسياحة فى مجال المعرفة ، والسياحة فى مجال العلم ، والسياحة فى مجال العبادة ، وشعارهم أن من استوى يومه فهو مغبون ، ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان . فالسياحة هى الضرب فى جميع المجالات تقرباً من الكمال الذى يحبه الله للمؤمن .

وهم الراكعون الساجدون . أى المصلون فى خشوع وخضوع .

وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، بعد أن ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر فى أنفسهم ، وذلك ما عبر الله عنه ، سبحانه بقوله : « والحافِظُونَ لِحدُودِ الله » .

وبعد : فإن الآية الكريمة تنتهى بقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

والتبشير هنا للمؤمنين الصادقين علم مطلق ، بشرهم بالفوز ، بشرهم بالأمن . وبشرهم بالسعادة ، وبشرهم بالنصر .

القرآن يرسم طريق النصر

ونعود إلى الآية الكريمة من جديد .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »[١] .

إن هذا العهد والتعاقد ، بين الله والمؤمنين ، إنما هو عهد الإيمان ، يبيع فيه المؤمن نفسه وماله ، يقدمهما إلى الله فلا يبخل بالمال فى سبيله سبحانه ، ولا يبخل بالنفس حينما تقتضى الظروف البذل والتضحية والفدائية .

والإيمان إذن - ومن شرائطه الجود بالمال والنفس - هو أول خطوة أساسية جوهرية فى طريق النصر - بل هو خطوة بدونها لا يكون هناك قط أساس مستقيم ، تعتمد عليه الأمم ، ويعتمد عليه القادة فى سبيل اتخاذ مكان كريم بين الدول .

على أن القرآن لا يعد المؤمن مؤمناً صادقاً إلا إذا كان مجاهداً بماله وبنفسه فى سبيل الله .

« إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[٢] .

أما إذا كان الإيمان ضعيفاً مزعزعاً متأرجحاً فإن نتيجة ذلك تكون تباطؤاً عن الخروج إلى الجهاد ، بل تخلفاً عنه .

« لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ، إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ

---

(١) التوبة آية : ١١١ .

(٢) الحجرات - آية : ١٥ .

الآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ »[١] .

بل إن وجود العناصر التى لا يملأ الإيمان أفئدتها فى صفوف المجاهدين تضر بقضيتهم .

« لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالا ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ، يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ »[٢] .

وضعفاء الإيمان ، ومن لا إيمان عندهم يستخفون حين يبدأ النضال ويتخلفون عن الجهاد فرحين بذلك .

« فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللهِ ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ »[٣] .

ويأمر القرآن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يعزل هذه العناصر عن معسكر المؤمنين وألا يأذن لهم بالمشاركة فى الجهاد .

« فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ، فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ » .

هذا الإيمان إنما هو إيجابى : يستعد ويهيئ للأمر عدته ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من أمر التعبئة للجهاد إلا ويحكمها ، ومن هنا كانت الخطوة الثانية فى طريق النصر ممثلة فى قوله تعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » .

---

(١) التوبة آيتا ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) التوبة آية : ٤٧ .

(٣) التوبة آية : ٨٣ .

وهذه القوة لا تقتصر على القوة المادية ، وإنما تتضمنها وتتسع دائرتها فتشمل التعبئة الروحية .

ومما لا شك فيه أن التعبئة الروحية هى قوة دافعة نحو الثبات فى لقاء العدو والإقدام فى شجاعة نحو تحقيق النصر .

« يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذَا لَقيتُمْ فئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ »(١) .

والتعبئة الروحية إنما تثبت دعائمها وتؤتى ثمارها حينما يكون الهدف من الجهاد واضحاً سافرًا .

ومن هنا كانت الخطوة الثالثة التى رسمها القرآن فى طريق النصر ، وهى وضوح الهدف ، والهدف القرآنى من الجهاد ، ولا بأس من ذكره مرة ثانية - ليس عرضاً ماديًّا أو حظًّا دنيويًّا ، وما كانت هجرة المجاهد لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، إنما هجرته إلى الله ورسوله ، ومعنى ذلك : أن هدف الجهاد ، إنما هو إعلاء كلمة الله .

وكلمة الله هى الحق . وهى العدالة وهى الرحمة . وهى الأخوة ، وهى السلام العالمى ، بالنسبة للفرد فى نفسه ، ودمه وماله وعرضه ، أو بالنسبة للأمة فى كرامتها وعزتها ، وكل مقدساتها .

« الَّذينَ آمَنُوا يُقَاتلُونَ فى سَبيلِ الله »(٢) .

والتعبئة الروحية كفيلة بأن تَجْعَلَ الأمة فى جهادها كالبنيان المرصوص ، ومن هنا كانت الخطوة الرابعة التى رسمها القرآن فى سبيل النصر .

« إنَّ اللهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقاتلُونَ فى سبيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ »(٣) .

---

(١) الأنفال - آية : ٤٥ .
(٢) النساء - آية : ٧٦ .
(٣) الصف - آية : ٤ .

« وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »(١).

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا »(٢).

فإذا ما وسوس الشيطان بنزاع أو خلاف ، وإذا ما تحدثت النفس بفرقة وشقاق ، فإن طريقة تسوية ذلك مرسومة واضحة :

« فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »(٣).

إن الأمة التى تنصر الله باتباعها للدين الخالص ، قد ضمن الله لها النصر ووعدها به ، ووعد الله لا يتخلف .

« إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »(٤).

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »(٥).

أما الموقف الأخير فهو التفويض لله سبحانه ، والثقة فيه وحده والاعتماد عليه لا على النفس أو القوة المادية ، أو أى شىء آخر ، وقد أعطى الله المسلمين درساً قاسياً حينما اعتمدوا على قوتهم وكثرتهم ، وعلى تفوقهم وعدتهم وعتادهم وقالوا :

« لن نغلب اليوم من قلة » .

كان ذلك فى غزوة حنين ، ولقد صور الله الموقف تصويراً قويًّا فقال سبحانه :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ،

---

(١) الأنفال – آية : ٤٦ .

(٢) آل عمران آية : ١٠٢ .

(٣) النساء – آية : ٥٩ .

(٤) – محمد – آية : ٧ .

(٥) الحج – آية : ٤٠ .

فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

« سننتصر »

خلاصة وإيضاح لعدة زوايا

سننتصر بإذن الله . ولقد بين الله سبحانه لنا عوامل النصر ووسائله ، فقال سبحانه فى صورة شاملة :

« يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »[١] .

إن الله سبحانه وتعالى يخاطب بذلك المؤمنين الذين وجدت نفوسهم حلاوة الإيمان ، فكان الله ورسوله أحب إليهم من كل شىء : من المال والولد والنفس والنفيس ... إنه سبحانه يخاطب المؤمنين الصادقين الذين وصفهم فى تأكيد دقيق بقوله :

« إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وأول عامل من عوامل النصر إذن إنما هو الإيمان . الإيمان الذى باع الإنسان فيه نفسه وماله لله سبحانه بثمن هو الجنة :

---

(١) الأنفال آيتا : ٤٥ ، ٤٦ .

« إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتلون » .

أما العامل الثانى ، الذى بينه الله سبحانه فى الآية : فهو الثبات : الثبات فى كل ما يتصل بالإيمان ، وما يتصل بالجهاد ، الثبات فى الإعداد المادى ، والثبات فى لقاء العدو ، والثبات فى الإعداد الروحى ، والثبات على وجه العموم فى التعبئة بجميع ألوانها ، روحية إيمانية ، أو مادية حربية .

أما العامل الثالث فهو : ذكر الله ، ولم يأمر الله بالذكر دون وصف له ، وإنما وصفه بالكثرة قائلا :

« وَاذْكُرُوا اللهَ كثيراً » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدوة حسنة فى هذا ، لقد كان يعبئ التعبئة الكاملة دون أن يترك شيئاً صغيراً كان أو كبيراً للمصادفة ، أو للحظ ، ثم يلجأ إلى الله بالدعاء ، والذكر ، من ذلك مثلا : قوله صلى الله عليه وسلم .

« اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم ... » .

أما العامل الرابع : فهو طاعة الله ورسوله : طاعتهما فيما أمرا من مسائل الجهاد وغيره ، ومما أمرا به فى مسائل الجهاد إعداد القوة بأقصى ما يمكن من طاقة ، يقول تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ومن أوامر الله العامة الشاملة ، التقوى ، ولقد وعد الله المتقين بالإخراج من كل حرج أو ضيق :

« وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ منْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب » .

أما العامل الخامس : فهو عدم النزاع لأنه سبب الفشل ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، أى قوتكم وغلبتكم ...

والعامل الأخير الذى ختم الله به عوامل النصر ، هو الصبر : الصبر فى اللقاء . والصبر على طاعة الله ، والصبر على مخالفة الهوى والشهوات والنزعات الشيطانية ، فإذا ما حققنا ذلك كان الله معنا ...

« إن الله مع الصابرين » .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حسبما رواه ابن أبى حاتم :

« من أحب أن يكون أقوى الناس ، فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس ، فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس ، فليتق الله عز وجل » .

وتوكل المؤمنين على الله سبحانه ، شعار لهم ملازم ، وصفة من صفاتهم ، لا تفارقهم :

إنهم متوكلون عليه مع إحكام جميع أمورهم ، وإتقان جميع شئونهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل عال من أمثلة ذلك :

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يحكم أمره إحكاماً غير منقوص ، وهو من قبل الشروع فى إحكام العمل متوكل على الله ، وفى أثناء القيام بإحكام العمل متوكل على الله ، وبعد الانتهاء من إحكام العمل متوكل على الله .

ها هو ذا صلى الله عليه وسلم فى بدر يعبئ الصفوف ليلا . ويذهب إلى أصحاب النبل فيوصيهم بالطريق الأمثل ، ويمر بالقبائل ، فيرشد كل قبيلة إلى شعارها . وينظر فى الأمر من قريب ومن بعيد ، ويأمر الجيش كله أمراً حاسماً ، ألا يحملوا على العدو حتى يأمرهم ، فلما تم له من الإعداد

والتهيئة ما أحب استقبل القبلة والتجأ إلى الله متضرعاً مستنجداً خاشعاً :

اللهم أنجزلى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلا تعبد بعد فى الأرض أبداً .

واستمر يستغيث بربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر رضى الله عنه ، فأخذ رداءه فرده ، وأخذ يقول : يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

وبعد : فهذا هو التوكل الإسلامى ، إنه إعداد ، وكفاح ، وجهاد ، واستناد إلى الله فى الصغير من الأمور والكبير منها :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

أما فيما يتعلق بالدعاء خاصة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يدعه فى الحروب وما كان يدعه فى غير الحروب . ولقد رويت فى الحرب أدعية هى على وجه العموم داخلة فى الأدعية التى يتجه فيها الإنسان إلى الله طالباً كشف الكرب ورفع المقت .

يقول الإمام النووى فى كتاب الأذكار بالنسبة للمقاتلين :

ويستحب استحباباً متأكداً أن يقرأ ما تيسر له من القرآن وأن يقول فى دعاء الكرب وهو فى الصحيحين :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم .

ويقول :

حصنتنا كلنا أجمعين بالحى القيوم الذى لا يموت أبدًا ، ودفعت عنا السوء بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .